نظرية النظم سبقت مفاهيم الحداثة الجرجاني.. الناقد الذي سبق عصره

د. عمر عاشور (ابن الزيبان)

تتمحور مفاهيم نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني(*) حول إعجاز القرآن الكريم، من حيث النحو واللغة، إذ تكشف عن التماسك والانسجام الذي يحكم آياته وسوره (نصوصه)، ففي كتابه **دلائل الإعجاز** نجد الكثير من التقاطعات مع المفاهيم التي جاءت بها اللسانيات الحديثة، مما يجعله يحصد قصب السبق في مجال الحداثة.

وتعد مفاهيم النظم التي قال بها بمثابة النظرية القائمة بذاتها، سواء تعلق الأمر بجماليات النص من حيث مواطن الحسن والقبح، كما هو في الشعر أم من خلال الإعجاز كما هو في النص القرآني المقدس. وهي مفاهيم مستمدة من ثنائية اللفظ والمعنى.

ورغم أن **النظم** كما في **دلائل الإعجاز** هو وضع الكلام وفق مقتضيات النحو توخيا للفصاحة، إلا أن هذه العملية تتطلب خبرة دقيقة باستعمال اللغة "وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حساب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه من بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، وكذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف، والوشي والتحبير، وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها من بعض، حتى يكون لوضع كلٍ حيث وضعُ علةٍ تقتضي كونه هناك، حتى لو وضع في مكانٍ غيرِه لم يصحّ".[1]

من هنا يقوم النظم على ستة عناصر تحقق الاكتمال والانسجام سواء على مستوى البناء السطحي أم العميق، وهذه العناصر هي: النسج، التأليف، الصياغة، البناء، الوشي، التحبير. حيث يجب مراعاة هذه العناصر في تأليف الكلام، من خلال ترتيب ألفاظها وتراكيبها على حسب ترتيب المعاني النفسية وتصاغ في نسيج لغوي محكم الصياغة والتأليف "فليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضته الحال".[2]

اللفظ والمعنى:

من هنا فإن الإعجاز عند الجرجاني ليس مرتبطا باحتفال النص القرآني بالغيبيات أو بالصرفة كما جاء عند الكثير من سابقيه، بل مرتبط بمعناه الذي ينتجه اللفظ أثناء الاستعمال، أي إن الإعجاز ضرب من البيان اللغوي تحدى اللّهُ به أمةَ الفصاحة التي عجزت عن أن تأتي بمثله، بمعنى أن الإعجاز هو نتاج علاقة تكاملية بين اللفظ والمعنى، فالصورة البيانية هي نتاج لفظ معبر ومعنى يجسد الصورة، ويعطي للألفاظ أبعادها وصورها وجمالها، فاللفظة مفردة لا يمكن أن تكون معجزة، لأنها تظل قاتمة صامتة لا تنطق والمعنى العظيم هو الذي ينطق اللفظ ويجعل له لسانا معبرا، فاللفظ لا يمكن وصفه بدقة إلا في إطار ملاءمته لمعناه المراد، وحسن انسجامه مع الألفاظ الأخرى في الجملة الواحدة بحيث يصبح الكلام معبرا أحسن تعبير عن المعنى المراد: "واعلم أن الداء الدوي والذي أعيا أمره في هذا الباب غلط من قدّم الشعر بمعناه وأقلّ الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فصل عن المعنى يقول: ما في اللفظ لولا المعنى؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر".[3]

وبالتالي فإن المقولة الشائعة في نقدنا والقائلة بأن المعاني موضوعة على الطريق- مما أعطى للفظ تشريفا على حساب المعنى - تحتاج إلى مراجعة، فقد سبق أن تساءل الجرجاني في معرض حديثه عن إعجاز القرآن، بما أعجز القرآنُ العربَ؟ هل أعجزهم بلفظه أم بمعناه؟ ليخلص إلى أن ما أعجز أمة الفصاحة والبلاغة هو تلاقي اللفظ والمعنى معا، فلا مجال للإعجاز في لفظ دون معناه، ولا مجال للإعجاز في معنى دون لفظ، إذ يؤكد بقوله: "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر".[4]

وبالتالي فالنص سواء كان شعريا أم قرآنيا يبقى إعجازه بلاغيا ينتج عن التمازج والتناسب والتلاحم والتناسج بين المعاني والألفاظ هو الوسيلة التي بها يتم النظم أي إن النص عبارة عن شبكة من العلاقات بين الألفاظ ومعانيها في بناء متناسق منسجم.

النظم أساس الإعجاز:

وهكذا وصل الجرجاني إلى إيجاد حل لإشكالية اللفظ والمعنى من خلال تأسيسه للنظم وفق طرائق النحو، والذي تقوم مبادئه على الأركان التالية:

1. النظم هو التأليف وسبيل التصوير والصياغة.

2. النظم ليس في اللفظة المفردة.

وليس المقصود بنظم الألفاظ مجرّد تتابعها في النطق كما هي الحال في نظم الحروف، وإلا استوى الناس كلّهم في العلم بحسن النظم ورداءته؛ لأنّهم جميعاً يُحسّون بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً. ولكنّ المقصود به تناسق دلالاتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل. وإذن فإنّ الاعتبار في النظم هو للمعاني وليس للألفاظ؛ بل إنّ الألفاظ في ذلك تبَعٌ للمعاني، فهي تترتّب تلقائياً بحسَب الترتيب الذي تنشأ عليه المعاني في النفس، ولا يحتاج المتكلّم أن يفكّر مرّتين: مرة في ترتيب المعاني، وأخرى في ترتيب الألفاظ، وإنّما ينحصر تفكيره في المعنى؛ فإذا ترتّبت المعاني جاءت الألفاظ مرتّبة على نسقها من غير استئناف نظر جديد، "فلا يُتَصوَّر أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخّى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقَفَوْت بها آثارها، وأنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدَمٌ للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علمٌ بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق".[5]

3. النظم ليس في اللفظ أو المعنى مستقل أحدهما عن الآخر.

4 ـ النظم هو التعليق (تعلق الألفاظ ببعضها وتلعّق السابق باللاحق).

5. النظم هو توخي معاني النحو.[6]

ومن هنا يتضح أنّ المعاني النّحوية التي بنى عليه الجرجاني نظريته في النّظم. لا يراد بها الإعراب لأنّ هذا الأخير عاجز عن إنتاج التفاضل البلاغي والجمال بين العبارات "ومن العجيب أنّنا إذا نظرنا في الإعراب وجدنا التفاضل فيه محالا، لأنّه لا يتصور أن يكون للرفع والنصب في كلام مزية عليهما في كلام آخر، و إنّما الذي يتصور أن يكون هاهنا كلامان، قد وقع

في إعرابهما خلل، ثمّ كان أحدهما أكثر صوابا من الآخر، وكلامان قد يستمر أحدهما على الصواب، ولم يستمر الآخر، ولا يكون هذا تفاضلا في الإعراب، ولكن تركا له في شيء واستعمالا له في آخر".[7] انطلاقا من أنّ العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلّهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالرويّ.[8]

الإعجاز هو النظم:

بعد أن توصلنا إلى أن هو النظم عند الجرجاني هو بناء النص بما يتوافق وقواعد النحو العربي من خلال علاقة تكاملية بين اللفظ والمعنى، يمكن أن نستشفّ أن المفاهيم التي وضعها الجرجاني للمعاني والبيان، سواء على مستوى القرآن أم الشعر، هي الجماليات التي تخرج اللغة من دائرة الاستعمال العادي إلى دائرة الاستعمال الفني، فقد ركز الجرجاني في تحديده للإعجاز على اللغة كغاية ووسيلة معا، أي إنه ينشد البلاغة لإدراك الإعجاز عبر إشغال تفكيره بدقائق النظم وأسراره، مركزا دوما على أن الفصاحة في مزايا النظم وليست معطى ثابتا في اللغة، وبالتالي إعجاز النص ليس في الوزن، كما في الشعر، ولا في الألفاظ التي لم يألفها العرب، بل في استعمال الكلام وفق منطق اللغة، وبالتالي من عُدِمَ النظمَ جهل الإعجاز الذي هو جوهر النص القرآني "فليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه".[9]

وبالتالي فإن الألفاظ توجد صماء لا معاني لها إلا بعد خضوعها للإعراب "الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها، حتى يكون هو المستخرج لها".[10]

وهكذا عمل الجرجاني في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" على التمييز بين مستويات للكلام: مستوى عادي ومستوى مُعجز (القرآني) وبينهما مستوى الكلام الأدبي الذي عمل على تحديد خصائصه.[11]

بل إن الجرجاني جعل من علم الشعر سبيلا إلى معرفة إعجاز النص القرآني، انطلاقا من أن القرآن نص معجز ولا يعرف كنْه ذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ميدان البيان والفصاحة عند العرب.[12] وهكذا وهو يستدل بالشعر كشاهد على إعجاز النص القرآني كان يضع أسس نظرية لعلم الشعر، كما أنه سلك طريقا مغايرا لسابقيه الذين جعلوا من البلاغة طريقا

إلى الإعجاز، ذلك أنه انطلق من فكرة الإعجاز نفسها ليصل إلى توضيح مفهوم البلاغة بطريقة غير مسبوقة.[13] ليصل إلى نظرية النظم "التي لم يرها في الألفاظ، ولا في الإيقاع، ولا في الفواصل التي في الآي الكريم، ولا في الاستعارة، ولا في أيّ خصيصة لوحدها، بل في التأليف والتركيب".[14]

ومنها يتجلى النظم عند الجرجاني في دلالات ثلاث هي:

1ـ **الدلالة النحوية**: حيث إن النحو هو الذي يحكم الروابط والعلاقات التأثيرية بين الوحدات المكونة للنص.

2 ـ **الدلالة التراتبية**: ويسميها بالتعليق، حيث يرى أنه لا نظم ولا ترتيب في الكلم حتى يعلّق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتُجْعل هذه بسبب من تلك.[15]

3ـ **الدلالة البنائية**: وهي وحدة التأليف بين اللفظ والمعنى، حيث "الألفاظ لا تفيد حتى تؤلّف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه من التركيب والترتيب".[16]

وبالتالي يعارض الجرجاني من يضع الألفاظ تبّعا للمعنى أو العكس، مفرقا بين صناعة الكلام وصناعة النسيج والصياغة، فالصائغ يمكن أن يصنع سوارا مثل سوار صنعه صائغ قبله، أما في الكلام فالأمر مختلف تماما "لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر أو فصل من النثر فتؤديه على خاصيته وصفته بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا في وجه ولا أمر من الأمور".[17]

فصناعة الكلام خلافا لصناعة النسيج أو صياغة الذهب تقع على ضربين، ضرب تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وهو النثر الخالي من أي انزياح في اللغة، وضرب لا تصل إلى غرضه بدلالة اللفظ وحده، بل يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم نجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل. أي الكلام المجازي أو الاستعاري الذي ينطوي على انزياح في اللغة".[18] أي إن علاقة الشاعر باللغة مثل علاقة الصانع الحاذق بالمادة الخام، فالألفاظ والمادة الخام موجودتان قبل الشعر والصانع، ولكن الشاعر "يعيد نسجها في علاقات جديدة لتنتج دلالة جديدة، وهنا يكون التمايز بين شاعر وشاعر، وكلام وكلم، واستحالة أن تؤدي عبارتان المعنى بعينيه وخاصيته".[19]

من هنا نجد الجرجاني يميز "بين الغرض أو المعنى الأول الذي تؤديه اللغة المعيارية وبين المعنى أو معنى المعنى الذي تؤديه اللغة الشعرية".[20] مقسّما المعاني في الشعر إلى قسمين: **الأول**

عقلي وهو ما وافق العقل الصحيح "صريح معنى ليس للشعر في جوهره وذاته نصيب. وإنما له ما يلبسه من اللفظ ويكسوه من العبارة وكيفية التأدية".[21]

والثاني تخييلي يجيء طبقات ويأتي على درجات وهو "ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها ما لا ترى".[22]

معنى المعنى: نظرات سبقت النظرية:

ونستنتج مما سبق أن "معنى المعنى" الذي قال به الجرجاني يعدّ آنذاك "فتحا نقديا" غير مسبوق، ففيه "معنى المعنى" يتحوّل المدلول إلى دال، فقول العرب: (**بعيدة مهوى القرط**) كناية عن طول عنق المرأة، وهذا هو المعنى الأول الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة، وفيه تصبح الألفاظ دالة على المعنى الذي هو المدلول. أما **معنى المعنى** فهو أن طول العنق كناية عن الجمال، وهذا هو المعنى الثاني الذي يستخلصه الذهن من المعنى الأول وفيه يصبح **المعنى الأول** (طول عنق المرأة/ المدلول) **دالاً** على **المعنى الثاني** (الجمال).

وهكذا وصل الجرجاني إلى أن **المعنى** يُفهم من ظاهر اللفظ دون واسطة، و**معنى المعنى** أن نعقل من اللفظ معنى يفضي بنا إلى معنى آخر[23]. أي إن المعنى هو المستوى النحوي للغة ومعنى المعنى هو المستوى للبلاغي للغة (الكناية، الاستعارة والمجاز). وبالتالي من **مرحلة المعنى** جاء **علم المعاني** ومن **مرحلة معنى المعنى** جاء **علم البيان**، مما جعل الجرجاني لا يكاد يفرغ من تأليف كتابه (دلائل الإعجاز: في علم المعاني)، حتى بادر إلى وضع كتابه (أسرار البلاغة: في علم البيان) خصصه لدراسة معنى المعنى.

وبالتالي فالكلام الفصيح عند الجرجاني ـ من حيث المزية ـ قسمان، **الأول** تعزى المزية فيه للفظ كالكناية والاستعارة والتمثيل، من خلال عدول اللفظ عن الظاهر، وهو ما تقول به الشعرية في النقد الحديث. و**الثاني** تعزى المزية فيه للنظم الذي أساسه توخي معاني النحو. أما الوزن فليس من الفصاحة والبلاغة في شيء.

ونخلص إلى أن الجرجاني (القرن الخامس للهجرة وهو عصر تغلّب فيه العقل على النقل) استطاع أن يضع، انطلاقا من دراسته للنص التراثي قرآنا وشعرا، أسسا للشعرية لا تقل دقة عن الأسس التي وضعها لها النقد الحديث، حيث لا تزال مفاهيمه تحافظ على أصالتها وجدتها، ولم يكن ينقصه إلا المصطلح، بل إن بعض مفاهيمه تعتبر اليوم أرضية للمناهج الحديثة في الغرب التي تشتغل على أدبية النص سواء من حيث المبنى أم المعنى، بل إن من النقاد

الغربيين من يجزم أن (النحوية) كمنهج نقدي لم تدخل الدراسات الأدبية إلا مع الجرجاني الذي أجرى قوانين النحو على الجمل والتراكيب، فسبق بهذا جاك دريدا مؤسس التفكيكية في النقد البنيوي.[23] في حين يحاول بعض النقاد العرب، جهلا أو استلابا، إرجاع فتوحات الجرجاني النقدية إلى التأثر بالفكر اليوناني.

ختاما، تبقى نظرية النظم منذ القرن الهجري الخامس تشعّ بأسرارها التي لم يتم بعد الكشف عنها كلية، في حين إن الكثير من النظريات النقدية الحديثة باتت مستهلكة.

الهوامش:

(*)هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت471هـ) فارسي الأصل من جرجان، أخذ العلم عن محمد بن الحسن الفارسي النحوي، ويذكر ياقوت (في معجم الأدباء) أنه أخذ عن علي بن عبد العزيز الجرجاني.

(1) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني. شرح: د. محمد ألتنجي، دار الكتاب العربي. بيروت. ط2. 1997 . ص56

(2) نفسه: ص56

(3) نفسه: ص194

(4) نفسه: ص54

(5) نفسه: ص56

(6) نظرية النظم: صالح بلعيد. دار هومة. الجزائر. 2001. ص143

(7) دلائل الإعجاز: ص297

(8) نفسه: ص294

(9) نفسه: ص77

(10) نفسه: ص42

(11) فصول: فصلية محكمة. مصر. ع1. 1984. ص 13 (نظرية النظم عند الجرجاني/ قراءة في ضوء الأسلوبية: نصر أبو زيد)

[12] في الشعرية العربية: طراد الكبيسي.منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق.2004 . ص13

[13] تاريخ النقد الأدبي عند العرب:إحسان عباس.بيروت.1991. ص419

[14] في الشعرية العربية: طراد الكبيسي. ص56

[15] ينظر محتوى الإحالة 1 من هذا البحث.

[16] أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني. تحقيق: د. محمد الاسكندراني و د.م مسعود دار الكتاب العربي.ط2 . 1998 . ص10

[17] في الشعرية العربية: طراد الكبيسي. ص63

[18] نفسه: ص63

[19] في الشعرية العربية: طراد الكبيسي. ص72

[20] نفسه: ص70

[21] أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني. ص206

[22] نفسه: ص 213

[23] نفسه: ص 204/203

[24] الأسلوبية منهجياً نقديا: محمد عزام. وزارة الثقافة. دمشق، 1989.ص65